هيرمان باري*

السيميوطيقا باعتبارها مشروعًا براديغميًا في تاريخ الفلسفة

ترجمة: عبد المجيد نوسي**

يتناول هيرمان باري في هذا المقال مسألة السيميوطيقا المدمجة، فيعرض للسيميوطيقا عند بيرس ودو سوسير ويامسليف من منظور إبستيمولوجي أولًا، طارحًا السؤال عن سياقها الثقافي والنظري. وهو يقف عند الأصول النفسية التي ميزت تحديدات دو سوسير للسيميولوجيا وللجهاز المفاهيمي الذي شكل أدواتها، مثل العلامة، أو الأصول السوسيولوجية من خلال تحديدها مفهوم اللسان، مقارنًا إياها بالأصول التي اعتمدتها السيميوطيقا عند بيرس، وهي أصول منطقية. كما أنه يقف عند التمفصلات الأساسية لمفاهيم كلٍّ من سيميوطيقا دو سوسير وبيرس، محللًا الاتجاه الاثنيني (دو سوسير) والثلاثي (بيرس) في البناء، ليتساءل في سياق تحليله عن موقع السيميوطيقا في الفلسفات التي ميزت الفكر البشري: الأنطولوجيا والإبستيمولوجيا والسيميوطيقا. وإذا كان الفكر قد عرف أولوية إشكالية الكينونة والوجود وإشكالية المعرفة والإبستيمولوجيا بعد ذلك، فإن الوظيفة التدليلية ستصبح شرط كل معرفة. لذلك، فإن براديغم السيميوطيقا الذي ينهض بهذه الوظيفة يمكن اعتباره فلسفة أولى في الفكر المعاصر، لأن السيميوزيس، بصفته موضوعًا للسيميوطيقا، يسائل عناصر المثلث الثلاثة: العالم والذات والعلامة، وهذا ما يمكن أن تحققه السيميوطيقا المدمجة التي توجد على شكل مشروع براديغمي، ولكنه سيكون قادراً على نسج وشائج بين العالم والخطاب ومجموعة الإنتاج.

أسمح لنفسي، أولًا، بأن **أقترح** ماهية الصيغة التي ينتظم بها **البراديغم** السيميوطيقي المعاصر: أشير خاصة إلى التوترات المبرهنة (Théorétique) لهذا البراديغم، وتقابلاته

* المؤسسة الوطنية للبحث العلمي (بلجيكا).
** أستاذ جامعي، جامعة شعيب الدكالي، المغرب.

الداخلية التي تكون أحيانًا درامية. إن احتضان البراديغم السيميوطيقي يمكن أن تطالِب به هذه النخبة[١]: فريجه (Frege) وفيتغنشتاين (Wittgenstein) ودو سوسير (de Saussure) وبيرس (Peirce)، غير أنني سأركز نظري في هذا المقال على ما يمكن الاصطلاح عليه بـ «السيميوطيقيتين» ـ سيميوطيقا بيرس[٢] من جهة، وسيميوطيقا دو سوسير/يامسليف (Hjelmslev)[٣] من جهة أخرى ـ من دون التلميح إلى توافق محتمل لهذا التقابل مع تقابل آخر، على الأقل على المستوى نفسه من الأهمية، والأمر يتعلق بفريجه وفيتغنشتاين. أريد أن أشير، بعد ذلك، إلى أن خطوط القوة المنظِّمة للبراديغم الخاص بنا تُعَدّ ثانوية مقارَنة بالقيمة الموحدة للمشروع البراديغمي للسيميوطيقا في تاريخ الفكر. لا توجد هذه السيميوطيقا الكبيرة سوى بشكل جزئي في تحققاتها المتكونة: إنها **مشروع** حقيقي، وبالتالي تُعَدّ، نتيجة لذلك، افتراضية بصورة دائمة. لكننا نسجل على هذا المستوى ترابطات أساسية تتجاوز من بعيد التوترات المبرهنة التي أُضيئت في السيميوطيقيات المعاصرة المتكونة.

التوترات: تنافس النماذج الثلاثية والاثنينية في السيميوطيقا (بيرس ضد دو سوسير/يامسليف)

سأعمل على تقييم السيميوطيقا البيرسية والسيميوطيقا السوسيرية ـ اليامسليفية في سياقهما الأصلي قبل أن أقوم بتحديد الخطوط العامة للقواعد المفاهيمية للمذهبين وعقد مقارنة بينهما.

---

(1) Herman Parret, *Essai d'homologation des bases conceptuelles de la sémiotique structurale* (Amsterdam: [s. n.], 1983).

فريجه (١٨٤٨ ـ ١٩٢٥): رياضي ألماني، مؤسس المنطق الرياضي، أنشأ الحساب الأكسيوماتي للقضايا والتركيب المنطقي والنظرية الكمية. حدد معايير تمييز مفهوم الموضوع بتجاوز مشكل واقعية الكليات. من مؤلفاته: **أسس علم الحساب** (١٨٧٩). (المترجم)
فيتغنشتاين (١٨٨٩ ـ ١٩٥١): منطقي وفيلسوف اللغة جعل من اهتمامه باللغة موضوعًا فلسفيًا أساسيًا. اعتبر أن الاستعمال الصحيح للغة هو تعبيرها عن وقائع العالم، وأن قواعد اللغة تمثل المنطق. من مؤلفاته: **التراكتيس (مقالة في المنطق والفلسفة)** (١٩٢١)؛ **أبحاث فلسفية** (١٩٥٣). (المترجم)

(٢) هي سيميوطيقا الباحث الأميركي بيرس (١٨٣٩ ـ ١٩١٤) التي تنهض على المنطق والرياضيات والظاهراتية. وتُعَدّ السيميوطيقا عند بيرس مرادفة للمنطق، «**المنطق، في معناه العام، ليس سوى اسم آخر للسيميوطيقا، العلم شبه الضروري أو الشكلي للعلامات**». (المترجم)

Charles S. Peirce, *Erits sur le signe*, rassemblés, traduits et commentés par Gérard Deledalle, l'ordre philosophique : انظر (Paris: Editions du Seuil, 1978), p. 120.

(3) Ferdinand de Saussure, *Cours de linguistique générale*, éd. critique préparée par Tullio De Mauro; postf. de Louis-Jean Calvet, bibliothèque scientifique (Paris: Payot, 1985).

فرديناند دوسوسير (١٨٥٧ ـ ١٩١٣): يرجع إلى دوسوسير فضل تحديد موضوع اللسانيات الذي تجسد عنده في اللسان بصفته نظامًا ثابتًا من العلامات. وفي سياق تناوله موضوع اللسانيات، تطرق إلى الدراسة السيميوطيقية من خلال مفهوم السيميولوجيا، وحددها «بصفتها علمًا يدرس حياة العلامات داخل الحياة الاجتماعية». (المترجم)
لويس يامسليف (١٨٩٩ ـ ١٩٦٥): باحث لساني، عُرف بالنظرية الكلوسيماتية التي تميزت بمجموعة من الخصائص: ١ ـ الإجراء التحليلي السابق على التركيب؛ ٢ ـ التشديد على الشكل؛ ٣ ـ أخذ ما يتعدى شكل المحتوى بعين الاعتبار؛ ٤ ـ النظر إلى اللغة بصفتها نسقًا سيميوطيقيًا من بين أنساق أخرى. (المترجم)

ـ يُعَدّ السياق الثقافي والنظري الذي ولدت فيه كلٌّ من السيميوطيقا البيرسية و«السيميولوجيا» السوسيرية مختلفًا بشكل كبير. ويرجع تماسك وجهتي النظر في جزء كبير منه إلى السياقات النظرية التي أَنجز انطلاقًا منها بيرس من جهة ودو سوسير من جهة أخرى «علم العلامات».

سأقول أولًا بعض الكلمات حول سيميولوجيا دو سوسير. إن سياقها هو سياق **علم نفس التداعي**: «تجمعُ العلامة ليس بين شيء واسم، بل بين **مفهوم وصورة** سمعية»[٤]، والعلامة هي «وحدة نفسية»[٥]. إضافة إلى هذه النزعة النفسية[٦] التي تمثّل قاعدة لهذا التصور ـ وبشكل مناقض من دون أن ينتبه إليه دو سوسير ـ نجد تأثير السوسيولوجيا الدوركهايمية (نسبة إلى دوركهايم): «اللسان هو واقعة اجتماعية»، والتداعيات (**النفسية**) يجب أن تكون مؤكدة بواسطة **التوافق الجماعي**[٧]. والتفريعات الثنائية السوسيرية كلها، وخاصة التفريع الثنائي **لسان/ كلام**، تجد أصلها في هذا الوضع المربك الذي يتسبب فيه هذا التراكب للنزعة النفسية والسوسيولوجية[٨]. وفي استطاعتنا أن نعتبر، بصفة أعم، أن كل نموذج **ثنائي** في السيميوطيقا يقوم بالضرورة على اقتضاءات تترجم هذا الوضع المربك من هذه الطبيعة.

على العكس من ذلك، لا شيء من هذا عند بيرس، الذي يُعدّ **الاتجاه المضاد للنزعة النفسية** عنده قارًا، كما أن السيميوطيقا عنده ليست بعلم نفس ولا بعلم اجتماع، وإنما هي **منطق**[٩]. ومن الممكن أن يكون للعلامات **أصل** نفسي، بطبيعة الحال، غير أن هذا الأصل لا يؤثر في أي شيء في طبيعتها المنطقية. يقول لنا بيرس إن السيميوطيقا لا يمكن أن تكون استبطانية: تُعَدّ منهجيتها حقيقة «تجريبية» ما دامت العلامة في الجوهر هي ما **تفعله العلامة**، وإذن فهي **قاعدة للفعل**. بناء على هذا، نرى من جهة أن كلَّ سيميوطيقا منبثقة عن النموذج السوسيري ـ اليامسليفي تظل مهددة بالنزعة النفسية على نحو مستمر، ونرى من جهة أخرى أن الاتجاه المضاد للنزعة النفسية عند بيرس يوشك أن يؤدي إلى الانحراف نحو النزعة الاجتماعية، وبهذه الطريقة، نحو خيانة النظام المنطقي الذي يُعَدّ جوهريًا بالنسبة إلى السيميوطيقا (أبدأ عند بيرس نفسه وإنما عند تابعيه، وهم في الأغلب سلوكيون، الأمر الذي يُفقر بهذه الطريقة المذهب الأصلي لبيرس). لقد كان يجب في الواقع أن يحمي الإكراه «المنطقي» للسيميوطيقا سيميوطيقا بيرس من كل نزعة **سوسيولوجية**، على الرغم من أن طبيعة العلامة توصف بأنها **اجتماعية**. من الواضح أن دو سوسير يدفع عن نفسه بشكل جلي أنه يشتغل بعلم النفس، والشيء نفسه بالنسبة إلى بيرس الذي يدفع عن نفسه أنه يشتغل بالسوسيولوجيا: على مستوى الاختيارات الواضحة، يدافع

(٤) تُعَدّ العلامة عند دو سوسير وحدة نفسية تتكون من عنصرين: التصور والصورة السمعية، وتربط بينهما العلامة. (المترجم)

(5) Saussure, p. 99.

(٦) كما لاحظنا ذلك بالنسبة إلى العلامة، نشير إلى أن دو سوسير يعتبر في حديثه عن السيميولوجيا أن هذا العلم سيكون جزءًا من علم النفس الاجتماعي، أي جزءًا من علم النفس العام. (المترجم)

(7) Saussure, p. 32.

(٨) انظر: Gérard Deledalle, *Théorie et pratique du signe: Introduction à la sémiotique de Charles S. Peirce*, avec la collaboration de Joëlle Réthoré, collection langages et sociétés (Paris: Payot, 1979).

(٩) تُعتبر السيميوطيقا عند بيرس مرادفة للمنطق. (المترجم)، انظر: Peirce, *Erits sur le signe*, p. 120.

دو سوسير عن فكرة **استقلالية** اللسانيات والسيميوطيقا (قام بهذا سلفًا في مقدمة **المحاضرات**)[١٠]، غير أن السؤال لا يُطرح على مستوى اختيارات السطح بل على مستوى **أساسيات السيميوطيقا**. على هذا المستوى بالضبط، فإن السيميوطيقا هي منطق بالنسبة إلى بيرس: «السيميوطيقا هي المذهب شبه الضروري أو الشكلي للعلامات»[١١]، في حين تُعَدّ السيميولوجيا بالنسبة إلى دو سوسير «جزءًا من علم النفس الاجتماعي، وكنتيجة لذلك ، جزءًا من علم النفس العام»[١٢]. وإذا نظرنا عن قرب إلى أنواع السيميوطيقا التي تبلورت في أيامنا ـ سيميوطيقا ألجرداس جوليان غريماس[١٣] مثلًا ـ نسجل أن النزعتين، **النفسية** من جهة و**الاجتماعية** من جهة أخرى، تظلان دومًا حاضرتين: أصبحت السيميوطيقا بطريقة شبه أوتوماتيكية إمّا **سيميوطيقا نفسية** وإمّا **سيميوطيقا اجتماعية**، والنزعة الطبيعية لكل سيميوطيقا ذات ولاء سوسيري هي أن تصبح سيميوطيقا نفسية. إن تحييد هذا التعارض لا يُعَدّ ممكنًا إلا إذا اعتبرنا السيميوطيقا مثل **منطق** (سابق عن كل علم نفس أو علم اجتماع ـ منطقي)، ومن الأكيد أن هذا شيء مرغوب فيه بالصيغة التي يقدّمها بيرس. وسيكون من المجدي الاحتفاظ في الذهن بهذا التوجه **المزدوج** الممكن للسيميوطيقا، ودور التحييد الذي يقوم به تصور السيميوطيقا **بصفتها منطقًا**.

ـ في هذا الأفق، يجب أن نحاول الآن ضبط الحدوس المركزية لتصور السيميوطيقا عند بيرس أولًا، ثم عند دو سوسير ويامسليف.

إن العلامة في عمل بيرس هي علاقة **ثلاثية**[١٤]، وسنرى أن المزاج التثليثي يُعَدّ حاضرًا في جميع التصنيفات السيميوطيقية التي اقترحها هذا الكاتب. وحتى الأنطولوجيا الموافقة والموازية للسيميوطيقا تُعَدّ ثلاثية (الأولانية والثانيانية والثالثانية)[١٥]. وعلى المحور السيميوطيقي، هناك ثلاثة أنماط للعلامات: **الماثول** (Représentamen) بصفته علامة، و**الموضوع** بصفته علامة، و**المؤول** بصفته علامة، وثمة على المحور الإبستيمولوجي ثلاث استراتيجيات للمعرفة: الفرض الاستكشافي (Abduction) والاستقراء والاستنباط. أمّا الاستخلاصات المنجزة انطلاقًا من الماثول والموضوع والمؤول (أي انطلاقًا من وحدات المحور السيميوطيقي) نحو مقولات الأولانية والثانيانية والثالثانية، فتتم، على التوالي، بالفرض الاستكشافي والاستقراء والاستنباط. الفرض الاستكشافي ـ استراتيجية المعرفة التي جعل منها بيرس بمفرده نظرية للمعرفة ـ هو من طبيعة **الإحساس**: إنه يستنتج حالة انطلاقًا من قاعدة ومن نتيجة (نقوم باختيار افتراض تطبيق قاعدة عامة من دون اختبارها)، وتُعَدّ هذه الحالات المستنتجة **كيفيات**. الاستقراء هو من طبيعة **التجربة** الملاحظتية: نستنتج **قاعدة** انطلاقًا من الحالات ومن النتائج الخاصة؛ إنها توافق الثانيانية ما دامت القاعدة تُعَدّ **حكم وجود**. و**الاستنباط** هو من طبيعة

(١٠) يعني به كتاب دوسوسير: **محاضرات في علم اللغة العام**. (المترجم)

(11) Charles Sanders Peirce, *Collected Papers of Charles Sanders Peirce*.

(12) Saussure, p. 33.

(١٣) يشير إلى السيميوطيقا السردية والخطابية التي تبلورت من خلال أعمال غريماس، وخاصة غريماس ١٩٦٦، غريماس، كورتيس ١٩٧٩ ـ ١٩٨٦، وتميزت أساسًا بالاهتمام بشكل المعنى. (المترجم)

(١٤) اعتمد بيرس في تشييد نظريته على البناء التثليثي ، اتضح ذلك في الفانوروسكوبيا (الأولانية والثانيانية والثالثانية) كما في بناء العلامة: الممثل ، الموضوع ، المؤول . (المترجم)، انظر: Peirce, *Erits sur le signe*.

(١٥) يشير إلى الفلسفة الظاهراتية أو الفانوروسكوبيا التي تشيد بدورها على أساس تثليثي. (المترجم)

الفكر: نستنتج نتيجة بتطبيق قاعدة عامة على حالة خاصة؛ إنها توافق الثالثانية ما دامت النتيجة تُعَدّ تسنينًا أو «تأويلًا».

تصنيفات بيرس التثليثية المركّبة هذه كلها لا تهمني في ذاتها في هذا المجال؛ وما يُعتبر مهمًا بالنسبة إلى الحجة التي أقدمها هو نتيجة التثليث التعميمي بالنسبة إلى **نظام السيميوطيقا**. فالسيميوطيقا لا تشكل جزءًا من علم النفس الاجتماعي، وبالتالي لا تشكل جزءًا من علم النفس العام كما هو الأمر بالنسبة إلى دو سوسير، غير أنها تُعَدّ اسمًا آخر للمنطق، أو اسمًا لـ «المذهب شبه الضروري أو الصوري للعلامات». يرى بيرس أن الانشغالات النفسية ـ الاجتماعية للسيميائيين تُعَدّ منافية لإنجاز مذهب سيميولوجي ملائم[١٦]. ولكن القول إن النفسي و/أو السوسيولوجي لا يمكن أن يشكلا **عمادًا** للسيميولوجيا لا يمثّل سوى الوجه السلبي للتحديد البيرسي لنظام السيميوطيقا ـ الوجه الإيجابي ليس سوى تصوره التثليثي للعلامة ـ وعقليته التثليثية عامة ـ ما يجعل من هذا «المنطق» **علمًا لفعل العلامة** أو علمًا **للسيميوزيس مثل دينامية**. سنعود إلى هذه النقطة، ولكن لنلاحظ أولًا ما يتعلق في هذا الصدد بالسيميوطيقا السوسيرية ـ اليامسليفية.

ـ يمكن أن نقيم تقاربات وأن نستشف تشابهات بين بيرس ودو سوسير[١٧]، من بينها تصورهما المشترك لـ **إدماجية** العلامة وحتى، من وجهة نظر معيّنة، لـ **اعتباطيتها**. ولكن توجد تقابلات عميقة لها دائمًا علاقة بالخاصيتين اللتين أعلنتهما: السيميوطيقا مثل **منطق** في مقابل السيميوطيقا مثل **علم نفسي ـ اجتماعي**، والسيميوزيس باعتباره تثليثيًا، أي ديناميًا، في تقابل مع السيميوزيس كاثنيني (Dyadique)، أي مستقر ومطاوع. إذا أخذنا بعين الاعتبار الأطروحة المركزية لـ **خطية** العلامة عند دو سوسير، ستظهر الاختلافات بسرعة كبيرة. تعد الأفقية **زمنية** عند دو سوسير ما دامت «لا توجد العلامة اللغوية سوى **بتداعي** الدال والمدلول» (وتحيل نزعة التداعي (Associationnisme) هذه إلى الأساس النفسي ـ الاجتماعي للسيميوطيقا)، أو، بكلمات أخرى، «تُعَدّ العلامة كيانًا **نفسيًا** بوجهين»[١٨]، وهو ما يفيد فعلًا بأن السيميوزيس يُعتبر مستقرًا لأنه اثنيني.

على العكس من ذلك، يكتب بيرس بشكل واضح أن السيميوزيس يشمل سيرورة **لا ـ نهائية**[١٩]، وهو ما تنجم عنه نتيجة تعتبر بالتأكيد أن العلامة لا يمكن أن يُقال عنها إنها خَطية (بمعنى «خطية زمنيًا») بما أنها في النهاية غير مستقرة في وجهيها (الدال والمدلول)، وبما أن السيرورة تُعَدّ وسيطية (بسبب الثالوث).

يجب التدقيق، زيادة على ذلك، في ماذا سيكون التصوران: الأساس النفسي ـ الاجتماعي للسيميوطيقا من جهة، والبعد المتعلق باستقرار السيميوزيس من جهة أخرى ، وهما مترابطان بشكل ضروري. يكفي

(16) Peirce: *Collected Papers*, 5.485 et *Ecrits sur le signe*, pp. 212-214.

(17) Deledalle: *Théorie et pratique du signe*, pp. 29-49. Voir aussi: Gerhard Vigener, *Die zeichentheoretischen Entwürfe von F. de Saussure und Ch. S. Peirce als Grundlagen einer linguistischen Pragmatik*, Kōdikas: Supplement; 2 (Tübingen: Narr, 1979).

(18) Saussure, p. 99.

(19) Peirce, *Collected Papers*.

تصفح **المصادر المخطوطة للمحاضرات**[٢٠] لنعاين أن دو سوسير يعطي، بالفعل، أساسًا اجتماعيًا ـ نفسيًا للسيميولوجيا: «كل شيء يُعَدّ نفسيًا في اللسان، بما في ذلك ما هو ميكانيكي ومادي (تغير الأصوات... إلخ)»[٢١]. إذا كان صحيحًا، كما يقول، من أن «اللسانيات لا يمكن أن تنصهر وتنحل في علم النفس، كما يدعي ذلك ووندت»، فإنه يجب قلب العناصر والقول إن كل شيء يُعَدّ لسانيًا في المجال السايكولوجي. والسيميولوجيا، أي علم نفس أنساق العلامات، «تصبح جزءًا من علم النفس الاجتماعي»[٢٢]. في مقطع من مقاطع **المقدمات** الذي يذكّر فيه يامسليف بموقف دو سوسير تجاه مشكل علاقة السيميوطيقا/اللسانيات بعلم النفس/السوسيولوجيا[٢٣]، يكشف أولًا الغموض الأساسي عند دو سوسير، من جهة، في تأسيس السيميوطيقا/اللسانيات على أسس نفسية وسوسيولوجية، ويستشرف من جهة أخرى إمكانية سيميوطيقا مؤسسة على قاعدة يمكن القول عنها إنها «محايثة»، أو كما يقول يامسليف نفسه، «منطقية ـ رمزية». إن إعادة يامسليف الصياغة لاختيار الأساس تُعَدّ على مستوى عال من الذكاء، وإذا أُسِّست السيميوطيقا داخل علم النفس الاجتماعي، فإن هذا يعني أن السيميوطيقا لها **حدود:** إنها لا تحقق علم النفس الاجتماعي سوى بشكل جزئي، وهو ما يعني أن هناك موضوعات ذات طبيعة غير سيميوطيقية بالضرورة، ولا يكون لها عليها أي سلطة لإعادة البناء النظري. وإذا تَأَسَّست السيميوطيقا، على العكس من ذلك، داخل القاعدة المنطقية ـ الرمزية (مفهوم يامسليف)، فإن ليس لها **حدود**: لا توجد في هذه الحالة موضوعات غير سيميوطيقية، و**كل** علم، بل و**كل** فكر ملائم وجدّي يُعَدّ سيميوطيقيًا. سؤال يامسليف، إذن، هو: هل هناك حدود بين السيميوطيقا واللا ـ سيميوطيقي، وإذا وجِدت فعلًا، فأين هي؟ من البديهي أن بالنسبة إلى بيرس لا توجد حدود، وبالتالي فإن السيميوطيقا **هي**، في الإطار البيرسي، مرادفة للمنطق وتُقارب بشكل كبير السيميوطيقا ـ الكبيرة. إذن، إذا كانت السيميوطيقا لا تتوفّر على حدود، فإنها منطق، وإذا كانت لها حدود، فإن لها أساسًا اجتماعيًا ـ نفسيًا. لقد نجح يامسليف في إعادة صوغ سؤال أساس السيميوطيقا بمفاهيم ملموسة. وانطلاقًا من مقاربته فقط، فإن المسألة الإبستيمولوجية الأساسية للسيميوطيقا السوسيرية ـ اليامسليفية (غريماس (Greimas) ومدرسة باريس) غدت واضحة: هل هناك موضوعات غير سيميوطيقية، أو هل هناك حدود للسيميوطيقا وأين، عند الاقتضاء، توجد الحدود بين السيميوطيقي وغير ـ السيميوطيقي؟[٢٤] من المفيد أن نرى أن النقاش المتعلق بوضعية السيميوطيقا عند يامسليف، مع تصنيفه مختلف أنواع السيميوطيقا (سيميوطيقا إيحائية، ميتا سيميوطيقا، بل أيضًا ميتا سيميولوجيا)

(20) Robert Godel, *Les Sources manuscrites du «Cours de linguistique générale» de F. de Saussure* (Genève: E. Droz; Paris: Minard, 1957). Herman Parret, *Language and Discourse* (The Hague; Paris: Mouton, 1974).

(21) Godel, *Les Sources manuscrites*, D3-S.

نقرأ عند غودال أن دو سوسير قال في بادئ الأمر في المخطوط الأول **للمحاضرات** إن المبدأ الأساسي للتغيير القياسي يعدّ سايكولوجيا، على الرغم من أنه سيضع هذا الرأي موضع سؤال لاحقاً، وهو ما يمثّل أحد هذه الترددات النمطية التي نجدها في كل مكان في المذهب السوسيري للغة.

(22) D7-DJ, dans: Godel, p. 182.

(23) Louis Hjelmslev, *Prolegomena to a Theory of Language*, Translated by Francis J. Whitfield, Rev. English ed. (Madison, University of Wisconsin Press, 1961), pp. 107 ss.

(24) Hjelmslev, p. 109: «Where Do the Boundaries Lie between Semiotic and Non-Semiotic?».

يهم بكامله مسألة وجود (أو لا وجود) **حدود للسيميوطيقا**، أو مسألة وجود **موضوعات** تتعالى عن المجال السيميوطيقي وعن مجال بحثه.

يجب القول إن السيميوطيقا المعاصرة، وخاصة ما بعد البيرسية وما بعد اليامسليفية، وقعت في شراك تيه كلي حقيقي. **كل شيء** يُعَدّ سيميوطيقيًا، و**كل** موضوع يُعَدّ سيميوطيقيًا (ليكون «موضوعًا يجب أن يكون دالًا وقابلًا لأن يكون سيميوطيقيًا)، والسيميوطيقا ذاتها تُعَدّ سيميوطيقية. هذا التيه، الذي يتميز إلى حد ما بطبيعة فيتغنشتاينية، يتضمن في الواقع تصورًا مفاده أن ليس هناك ميتا ـ سيميوطيقا حقيقية ما دامت كل ميتا ـ سيميوطيقا تصبح بدورها سيميوطيقا ـ موضوع، وهكذا إلى ما لا نهاية. «العالم الطبيعي» هو سيميوطيقا، وسيميوطيقا «العالم الطبيعي» يمكن أن يقال عنها إنها ميتا ـ سيميوطيقا، وعلى غرار كل خطاب علمي، يمكن عمليًا أن تصبح بدورها سيميوطيقا ـ موضوع لميتاسيميوطيقا، وهكذا دواليك.

سنقول شيئًا مثيرًا ولكن الأمر هكذا: السيميوطيقيون هم، أولًا وقبل كل شيء، سيميوطيقيو السيميوطيقا... إن اعتبار السيميوطيقا منطقًا يُعَدّ، بمعنى من المعاني، هروبًا أمام سؤال أساسي في السيميوطيقا، ويطرح، زيادة على ذلك، المشكل الكبير، مشكل **تجريبية** الموضوع السيميوطيقي. ولكن لنصرف النظر برهة عن السؤال المحرِق المتعلق بالوضع الإبستيمولوجي للسيميوطيقا، بالرجوع إلى التوافق المحتمل لهذين «النوعين من السيميوطيقا».

ـ يشترك المشروع البيرسي والقراءة الجذرية (التي قام بها يامسليف) للمشروع السوسيري في رفض إقرار عماد السيميوطيقا: لهما قاسم مشترك هو تصور السيميوطيقا **مثل منطق**. ولكن أي منطق؟ إنه ثلاثي الأبعاد عند بيرس، لأن العلامة تُعَدّ ثلاثية وديناميةٍ: إنه منطق **فعل العلامة**. وماذا عن الخيار السوسيري اليامسليفي؟

إذا تفحصنا كتاب **المقدمات** عن قرب، سنرى أن نمذجة أنواع السيميوطيقا عند يامسليف أُنجزت بواسطة بنائه التراتبي الشهير للغة (نعني به المستويات الأربعة التي نحصل عليها بمزاوجة الاثنينيات ـ عبارة/محتوى ، شكل/مادة). هكذا نصل إلى الأنماط التالية: سيميوطيقيات **أحادية السطح** (الجبر والألعاب أو أنساق الرموز)؛ سيميوطيقيات **اثنينية السطح**؛ سيميوطيقيات **متعددة السطح** (سيميوطيقيات اثنينية اللغة يكون واحد من المستويين على الأقل سيميوطيقا). يبقى أن في الأنماط الممكنة كلها، تعيد السيميوطيقا بناء **العلاقات** (في السيميوطيقا الأحادية السطح، يتعلق الأمر بالعلاقات **ضمن ـ نسقية** على مستوى واحد، هو مستوى شكل المحتوى، مثلًا بالنسبة إلى الألعاب، في السيميوطيقيات الاثنينية السطح والمتعددة السطح، تضاف العلاقات **البي** ـ نسقية، أي العلاقات التي تعتبر نفسها نسقية ـ بين مختلف المستويات، كما هو الأمر بالنسبة إلى اللغات الطبيعية). نعيد، إذن، دائمًا بناء **العلاقات** بين هذين النوعين من السيميوطيقا. ولكن العلاقة هي، من جانب بيرس، **دينامية ووسيطية وثلاثية**، في حين أنها من جانب يامسليف **مستقرة وغير وسيطية واثنينية** (لكي لا نقول اثنانية (Binaire)).

يبدو بديهيًا أن الاتجاه الدينامي للعلاقة العَلامِية عند بيرس يعود إلى حضور **المؤول** الذي يُعَدّ في ذاته علامة ومكوِّنًا في كل علامة ثلاثية. المؤول ليس هو «القائم بالتأويل» (هذه الذاتية القابلة للشخصنة، والكاشفة لدلالات العالم كما هو الأمر في الهرمنيطيقا) ـ كما هو الأمر بالنسبة إلى **العامل**[٢٥]، في النظرية السيميوطيقية عند غريماس ـ ليس هو «الممثل» ـ لأنه يعتبر نفسه علامة. ولكن، من جهة أخرى، مثلما أن المؤول يُعَدّ مكوِّنا في **كل** علامة، فإنه يغير، بوضعيته السيميوطيقية، **طبيعة** العلامة؛ فهو يجعل من العلامة عنصرًا **وسيطيًا**، ويجعل العلامة تُصبح **فعلًا**. هناك شيء غريب في هذا الحدس المركزي عند بيرس المتعلق بمؤولٍ هو في الوقت نفسه علامة ومكوِّن في كل علامة، ولكن ليس بغريب مهما يطُل الأمد الذي نظل فيه متجذِّرين في الافتراضات المثالية والتذويتية. ولا شك في أن وضعية **المؤول** ووظيفته تُعدّان أكثر بساطة للفهم ـ إذا قمنا بتحليل مفهوم **العلاقة** وما يمكن لِتصور ثلاثي للعلامة أن يغير في مفهوم العلاقة. سأقول، مستعملًا ـ مع ذلك ـ لفظة جديدة شفافة، إن كل علاقة في السيميوطيقا البيرسية هي علاقة استمثال تمفصلي لا علاقة تمثيل معيّن، وهذا راجع، بطبيعة الحال، إلى واقع هو أن الممثل يجعل من **كل** علامة علامة وسيطية. وسيكون مستحبًا في سيميوطيقا ما بعد يامسليف أن العلاقة، هنا أيضًا، تصبح علاقة استمثال تمفصلي. سأقدم في بضع كلمات تفسيرًا لهذا المراد. أولًا، يجب أن أشير إلى أن بيرس نفسه ليس واضحًا بما فيه الكفاية ولا متماسكًا أيضًا حينما يُلمِّح إلى بنية **التمثيل** في السيميوطيقا الخاصة به (يقول، من بين ما يقول، إنه «إذا كان هناك شيء يريد أن يكون علامة، يجب على هذا الشيء أن يمثّل موضوعًا» ولكن، من جهة أخرى، لا تُعتبر علاقة المَاثول بالموضوع سيميوطيقية ما دامت لم **تخضعْ لتصور** (المؤول بصفته **كيفية**) ولم **تقل** (المؤول بصفته **وجودًا**) ولم **تستنتج** (المؤول باعتباره **فكرًا**). هذا الكل: **تصور/عملية التلفظ/ استنتاج**، يجعل من العلامة «صيرورة دلالة» من دون ذات حقيقية انطلاقًا من أن المؤول يُعَدّ «عادة» (Habitude) وليس بذاتية قابلة للشخصنة.

تُعتبر اصطلاحية بيرس المستعملة هجينة وغير متماسكة. ولذلك، أدمِج مفهومَ **الاستمثال** لمجموعة من المظاهر التي اصطلح عليها بيرس[٢٦]: «تحديد» و«إنتاج» و«إبداع» بل حتى «وساطة» (Médiation). «ما هو **مُستمثل** ليس فقط الموضوع ، ولكن أيضًا الماثول مثلما هو الأمر بالنسبة إلى المؤول نفسه. **يستمثل** المؤول ويُعَدّ **مسْتمثلًا** أيضًا: إنه **يولدُ** العلامة، إنه علامة، إنه **أثر** العلامة. وما دام أن ليس هناك إطلاقًا تشاكل بين عناصر الثلاثية، فإن هناك **تمفصلًا** متبادلًا وغير محدود. ونحن لا نستطيع أن ننسى في المقابل أن الاستمثال التمفصلي يُعَدّ إجمالًا **داخل السيميوزيس** (لا يوجد شيء خارج

(25) Douglas Greenlee, *Peirce's Concept of Sign*, Approaches to Semiotics. Paperback Series, 5 (The Hague: Mouton, 1973).

يميز غريماس في السيميوطيقا السردية بين العامل الذي ينجز فعلًا على المستوى الوظيفي والممثل الذي ينجز دورًا تيماتيكيًا يكون حاملًا لتحديد دلالي. (المترجم)

انظر: Algirdas Julien Greimas, *Du sens, II: Essais semiotiques* (Paris: Seuil 1983), p. 49.

(26) Détermination (2,94; 4,531), production (5.473), création (2.228).

يتعلق الأمر بمصطلحات بيرس المترجمة في النص. تحيل الأرقام المجاورة للمصطلحات على الأرقام التي توجد في النص الأصلي عند بيرس، **الأعمال الكاملة**، الذي ترجم عنه الفيلسوف الفرنسي جيرار دولودال كتاب **كتابات حول العلامة** (١٩٧٨). المترجم

السيميوزيس)، وأن المؤول يُعَدّ «**نهائيًا**» أو **منطقيًا** (المؤول المنطقي يُعَدّ مقابلًا للمؤول الانفعالي والطاقي)[٢٧]، وهو ما يُعتبر تحصيل حاصل بالنسبة إلى بيرس.

إذا نظرنا إلى السيميوطيقا السوسيرية ـ اليامسليفية، يجب أن نلاحظ أن السيميوطيقا تتخلص بصعوبة من النزعة الاجتماعية ـ النفسية لتتأسس بصفتها منطقًا حقيقيًا أو منطقًا رمزيًا، كما كان يقول يامسليف. والأصعب أيضًا هو أن نجعل منها منطقًا **ديناميًا**، أي ثلاثيًا، له مثل موضوع **فعل** العلامة (أو بتعبير أفضل: العلامة مثل فعل).

في عمل دو سوسير، وبالتأكيد في عمل يامسليف، إمكانات مهمة يمكن أن تؤدي إلى نتائج ملائمة. سأقول إن هناك تصويرات سابقة أولية لمنطق هو منطق **الاستِمثال التمفصلي** الذي يجب أن يكوِّن السيميوطيقا. أفكر في الفكرة السوسيرية بشأن العلامة **بصفتها تمفصلًا** (مقابلًا للعلامة، مثل عنصر أو وحدة أو جوهر)[٢٨] على الرغم من أن كل نظرية للعلامة مثل فعل (أو للغة مثل خطاب) تُعَدّ غائبة عن **المحاضرات**[٢٩]. كما أفكر طبعًا في «المنطق ـ الرمزي» اليامسليفي في الصفحات الأخيرة من **المقدمات**[٣٠]، وفي الرفض لكل نزعة اجتماعية ـ نفسية في الكتاب نفسه. ولكن إذا كانت فكرة المنطق حاضرة في عمل يامسليف، فإن فكرة الاستمثال التمفصلي تُعَدّ غير حاضرة البتة. يجب إذن «المرور عبر يامسليف» والوصول إلى موضع آخر إذا سمحنا لأنفسنا أن نظل موجَّهين بفكرة **السيميوطيقا كمشروع** براديغماتي داخل بانوراما تصورات الواقع واللغات.

الترابطات: السيميوطيقا مثل فلسفة أولى

أستعمل مفهوم البراديغم لا بالمعنى الأرثوذكسي عند كون (Kuhn) وفوكو وإنما بمعنى «القطيعة» و«الثورة»، بل على الأصح بإيحاء هيغلي (نسبة إلى الفيلسوف هيغل) يتسم بالعمومية ويتعلق بنوع معيّن من التقدم للفكر البشري داخل التاريخ. إن توالي البراديغمات يُعَدّ غائيًا من حيث إنه يشهد على التعزيز التدريجي للتفكير. ومن الواضح، زيادة على ذلك، أن تعاقب البراديغمات ليس بتعاقب تجريبي أو زمني تكون ضرورته سببية. في الواقع ، تتسم البراديغمات النظرية بخاصية هي خاصية أقنوم **الفلسفة الأولى**. ولأكون واضحًا وتبسيطيًا في الآن نفسه، أميز مع كارل أوتو أبل ثلاث فلسفات أولية تحققت خلال تاريخ الفكر البشري: الأنطولوجيا والإبستيمولوجيا والسيميوطيقا، وبعبارات ملموسة، فلسفة **الكينونة** (أرسطو)؛ فلسفة **الذات** (الذات العارفة، انظر كانْط)، ولكن أيضًا من ديكارت إلى هوسرل، وفلسفة **الدلالة** أو فلسفة **العلامة** (لا أعمل هنا سوى على اقتراح كوكبة من الأسماء: فريجه وفيتغنشتاين وبيرس ودو سوسير).

---

(٢٧) انواع المؤولات عند بيرس. انظر: Peirce, *Ecrits sur le signe*, pp. 126-138.

(28) Herman Parret: *Language*, chap. 1, et «Expression et articulation,» Revue Philosophique de Louvain, vol. 71 (Février 1973), pp. 72-113, et Godel, *Les Sources manuscrites*.

(٢٩) كتاب دوسوسير. أشرنا إليه سلفًا. (المترجم)

(٣٠) كتاب لويس يامسليف. أشرنا إليه سلفًا. (المترجم)

ـ إن استعمال «السيميوطيقا» كنمط للفلسفة الأولى سيكون مفاجئًا، أعني مؤقتًا بالسيميوطيقا النظرية (بتمييز «سيميوطيقا» من «النزعة السيميوطيقية» ومن «سيميولوجيا»، كما سنرى خلال مرحلة الاستدلال الذي أقوم به) التي يُعَدّ موضوعها **السيميوزيس؛ السيميوزيس** الذي يُعتبر إمّا مجالًا (أو حقلًا) لـ **الدلالة**، وإمّا مجالًا لـ **التواصل**. لا أقترح على هذا المستوى أي تمييز بين السيميوطيقا وفلسفة اللغة (أو فلسفة الخطاب أو فلسفة الأنساق التعبيرية عامة). وأقنوم اللغة منذ فيتغنشتاين هو أقنوم الدلالة منذ فريجه وأقنوم العلامة منذ بيرس ودو سوسير وهي كلها تمثل تمظهرات شتى للبراديغم نفسه.

خضع الفكر منذ أمد طويل لأولوية الكينونة والوجود والواقع بصفتها موضوعات سابقة عن كل إعادة بناء فلسفي. وحداثة الفكر الغربي ترمي بالتدقيق إلى إعادة النظر في الأرسطية وفي النزعة الأنطولوجية البراديغماتية. وبدأ الحداثيون، وخاصة كانط، في ما بعد ذلك ينظرون إلى الكينونة والواقع بصفتهما موضوعًا لـ **الإدراك**، له فاعلية ثقافية ونظرية (فلسفية أو علمية)، ويدمجون قبلية **الذات** العارفة و قبلية **الوعي** المتفكر فيه. وفي وقت لاحق، ستتخذ القوة التقويضية للبراديغم الثالث موقفًا ضد أولوية الإبستيمولوجيا، وخاصة ضد أولوية النزعة **الذاتية** التي تقهقرت بطريقة أساسية إلى البراديغم الثاني الذي جعل من الإبستيمولوجيا، من ديكارت إلى هوسرل، الفلسفة الأولى. لذلك، فإن الدلالة داخل الخطاب أو **الوظيفة العلامية** هي التي تصبح في البراديغم الجديد الشرط لكل معرفة للعالم، بل حتى في نسختها الأكثر جذرية، شرط الذات العارفة بكل بساطة، وحتى العالم: الوظيفة العلامية تُعَدّ عنصرًا مكونًا للذاتية وللاجتماعية. وأقل ما نستطيع قوله هو أن الوظيفة العلامية تُعتبر على مستوى البراديغم الثالث شرطًا لإمكانية تأويل العالم، وخاصة إمكانية إقرار الإجرائية البي ـ ذاتية لهذا التأويل: الوظيفة العلامية ـ أو الدلالة ـ هي، في الواقع، وظيفة وساطة بين المؤول والعالم. وأنا أسمّي الفلسفة الأولى الناجمة عن هذه الرؤية البراديغماتية الثالثة **السيميوطيقا ـ الكبيرة** ، بتمييزها من النزعة السيميوطيقية ومن السيميولوجيا. وأولوية السيميوزيس، كموضوع براديغماتي لكل مجهود تنظيري معاصر في الفلسفة وفي العلوم الإنسانية، لها ما يعادلها، بطبيعة الحال، داخل أقنوم **اللغة** في الفكر الأنغلوساكسوني منذ فريجه وفيتغنشتاين. الفلسفة الأولى التي هي السيميوطيقا، هي، على كل حال، الأكثر شمولية مقارنة بالنمطين الآخرين للفلسفات الأولى التي هي الأنطولوجيا (أو الميتافيزيقا) والإبستيمولوجيا.

تُعَدّ السيميوطيقا **ثلاثية الأبعاد** لأن موضوعها، السيميوزيس، يخترق عناصر المثلث الثلاثة: عالم ـ ذات ـ علامة (أو وظيفة دلالية). ويُعتبر هذا الثالوث بطبيعة الحال مماثلًا للثالوث البيرسي: الموضوع والعلامة (أو الممثل) والمؤول، لكني أتجنب في هذه اللحظة هذه الاصطلاحية بالعودة إلى المفاهيم الفلسفية التقليدية: **العالم**، **الذات** في مواجهة هذا العالم (أكثر غنى من مجموع الموضوعات الطبيعية، بل من الأحداث ومن حالات الأمر الواقع ومن الكيانات الأنطولوجية الغامضة مثل القيم)، **ونسق التعبير أو النسق العلامي** الذي له وظيفة وساطة.

ـ إن كون الفلسفات الثلاث الأولى تعاقبت، كما قامت بذلك[٣١]، خاصة الاتجاه الأنطولوجي أولًا والإبستيمولوجيا لاحقًا والسيميوطيقا أخيرًا، لم ينتج من طارئ تاريخي وإنما من منطق داخلي معيّن سأقول فيه بعض الكلمات الآن.

يبدو لي التعاقب المنطقي إذن بالصيغة التالية: **كينونة ومعرفة ودلالة/تواصل**. ويجب، أولًا، أن يكون هناك نقاش يهم الكينونة، وهو ما يولد مشكل الشك ومعضلة الوجود والعدم: هكذا يبدو أن مشكل المعرفة والحقيقة الموضوعية ينبع ضرورة من هذا النقاش. المرحلة اللاحقة هي المرحلة التي نطور فيها نظرية للتواصل لمعرفة إجرائية على نحو بي ـ ذاتي عبر، وبمساعدة من، أنساق التعبير (أو أَنساق العلامات)، أي أنساق كيانات **دالة**. هذه الملاحظة التي تبدو أكثر حدسية، وتُعتبر، بكل بساطة، ملاحظة سليمة، لها نتائج حاسمة بالنسبة إلى **تحديد** السيميوطيقا نفسها وليس فقط بالنسبة إلى تقييم تاريخ الفلسفات الأولى. وإني طبعًا أعتبر تعاقب الفلسفات الثلاث الأولى مثل نوع من التجذير، لكن الأمر يتعلق بتجذير لا تُعتبر مراحله السابقة ضائعة كليًا أو متجاوزة. سيكون كلامي سهل الفهم إذا قلت إننا لا نستطيع أن نشتغل بالسيميوطيقا إذا لم نكن ما ـ بعد كانطيين[٣٢]، أو أننا لا نستطيع أن نقوم بنظرية للتواصلية أو نظرية للتلاؤم العلامي من دون المرور بنظرية لـ«**شروط إنتاج**» (ذاتية في الإطار الكانطي) الدلالة.

وحتى إذا كان تعاقب الفلسفات الثلاث الأولى يمثّل ترسيخًا، وهو أمر محتمل، فيجب دائمًا أن نشير إلى أن للسيميوطيقا أولوية تجاه خصومها، من غير الذين يسمون إلى مصاف الفلسفات الأولى، وخاصة الاتجاهات الثلاثة **الدلالي** و**التركيبي** و**التداولي**. يجب البرهنة، في الواقع، عن المجال الذي تبدو فيه السيميوطيقا براديغماتيًا أعلى من البراديغمات التابعة: الاتجاهات الدلالي والتركيبي والتداولي، باعتبارها **سيميوطيقا مدمجة** ـ وإلا أصبحت على خلاف ذلك من طبيعة «النزعة السيميوطيقية» أو مجموعة لا تكون بين أبعادها الثلاثة سوى علاقة شبه تكتيكية ـ فإنها تحقق وساطة العلاقة الدلالية (علاقة العبارة بالموضوع) كما هو الأمر بالنسبة إلى العلاقة التداولية (علاقة الذات بالموضوع). إنها، زيادة على ذلك، في وضعية إعادة بناء النسق التركيبي باعتباره نسقًا لـ **الإنتاج** ـ ليس بالمعنى الذي يعطيه تشومسكي[٣٣]، وإنما بإدراج داخل النواة، نواة النسق التركيبي نفسه، البنية الداخلية لـ **منتج الدلالة**، علاوة على وجوب أن يكون نسق الإنتاج هذا نسقًا **منفتحًا**، أي نسقًا يمفصل موضوعات اجتماعية بطريقة غير محدودة. سأحاول بعد قليل أن أجسد إلى حد ما فكرة المشروع السيميوطيقي، أو مشروع سيميوطيقا مدمجة بتمييزها من الاتجاه الدلالي والاتجاه التركيبي والاتجاه التداولي، ولكن يجب أولًا إزالة اعتراض.

---

(٣١) انظر في هذا الموضوع: Ian Hacking, *Why Does Language Matter to Philosophy?* (Cambridge; New York: Cambridge University Press, 1975) حيث يضع الكاتب مخططًا لتطور آخر انطلاقًا من المفاهيم المعاصرة: أفكار، دلالة، جمل لـ إذن، وأيضًا، نحو تأثير حاسم للغة).

(٣٢) نسبة إلى الفيلسوف كانط.

(٣٣) يشير إلى مفهوم الإبداعية عند تشومسكي. (المترجم)

ثمة اعتراض يذهب إلى القول إن اتجاهات أخرى في الفكر، مثل ماركس وهايدغر (وحتى هيغل)، تلبّي كليًا متطلب الأبعادية ـ الثلاثية ومتطلب الوساطة. ويمكن أن تُعتبر هكذا، بالاتفاق تمامًا، الفلسفات الأولى لعالمنا المعاصر. وسيكون أيضًا من اللا ـ حدسي بشكل كبير عدم اعتبارها بهذا الشكل، خاصة في ما يتعلق بالماركسية. إذا كنت أذكر ماركس وهايدغر باعتبارهما براديغمين ممكنين للفكر المعاصر، فلأن تصورية عصرنا ستكون خاضعة لأولوية **التاريخ**، لأولوية القناعة التاريخية، ليس فقط تاريخية الإنسان بل تاريخية الفكر أيضًا، وتاريخية كل نظرية، وتاريخية الفلسفة ذاتها. غير أن هذا الأقنوم، أقنوم التاريخ، لا يتناقض مع فكرة (أتبناها أنا أيضًا) أن السيميوطيقا تكون فلسفة أولى، على الرغم من أن من الضروري، إذن، تخصيص ما نفهمه بـ«التاريخ» وبفكرة السيميوطيقا، كـ«علم تاريخي» (أي علم محدد تاريخيًا، لكنه في الوقت نفسه علم لـ«تاريخ» ـ موضوع معيّن، تاريخ يخترق الأبعاد الثلاثة للسيميوزيس). قدمت لنا السيميوطيقا، مع ذلك، كما هو شائع، من طرف بعض الأيديولوجيين وكأنها **لا ـ تاريخية** على الإطلاق (أي ليست تزامنية فقط: نتعمد، بسهولة، الغموض بين «التزامني» واللا ـ تاريخي). كيف، إذن، يمكن السيموزيس الثلاثي الأبعاد ، بصفته موضوعًا للسيميوطيقا، أن يكون **تاريخيًا**؟ حتى بالنسبة إلى ماركس وهايدغر، لا يمكن التاريخ أن يتصور مثل سيرورة طبيعية قابلة لأن نضفي عليها طابع الموضوعية، وقابلة لأن تفسَّر مثل واقع مستقل عن كل تنظير وعن الممارسة البشرية. إن المسار عبر الثلاثة يُعتبر «تاريخيًا» مسارًا ديالكتيكًا، والسيميوطيقا تعيد بناءه باعتباره نظرية، بطبيعة الحال، ولكن باعتباره أيضًا **ممارسة نظرية**: هكذا، فإن السيميوطيقا، بمعنى الفلسفة الأولى للفكر المعاصر، تُعَدّ تاريخية ومنشغلة بالتاريخ ـ الموضوع، أو بتاريخية موضوعها. ولا تُعتبر السيميوطيقا ـ دائمًا على هذا المستوى الأكثر شمولية للفلسفة الأولى ـ ضد الماركسية أو ضد الهايدغرية، وعلى أي حال، لا تُعَدّ ضرورة أيضًا. يجب، على العكس من ذلك، إدماج التاريخية في عمق نواة الدلالة والتواصل، أي عمق السيميوزيس، ولو أن المفهوم **السيميوطيقي** للتاريخ لا يُعَدّ مطابقًا كليًا لمفاهيم هيغل وماركس وهايدغر ضد هيغل (وما هو هيغلي في ماركس). سأقول إن تاريخية فكر تاريخي تلغي **كل** استباق لحقيقة **مطلقة**: لا تُعَدّ السيميوطيقا، هكذا، معرفة مطلقة، بل تُعَدّ حوارية لا نهائية لمجموعة غير محددة تُعتبر في الوقت نفسه منتجة للسيميوطيقا ولموضوعها الذي هو السيميوزيس. أمّا ما سأقوله ضد ماركس، فهو أن السيميوطيقا لا يمكن أن تكون هذه **الأنطولوجيا** الدوغمائية (الغائية) للكينونة التاريخية بإيحاءاتها المهولة، وهي النزعة الموضوعية والعلمية. وضد هايدغر سأتحمل مسؤولية الدفاع عن نوع من «الأخلاقيات السيميوطيقية»؛ الأخلاقيات التي تقود المعركة ضد الوهم البرجوازي (الهايدغري، بمعنى من المعاني) **للذات المتوحدة** التي لا تكون ممارساتها، وخاصة ممارسة «الإصغاء»، إلا سلبية. في نهاية الأمر، سأقول: نعم، البراديغم الذي يتحرك ضمنه الفكر هو براديغم التاريخ والتاريخية، لكنه ـ بكل دقة ـ التاريخ كما نستطيع أن نجعل منه **مفهومًا** سيميوطيقيًا ، بل «أخلاقيات» سيميوطيقية.

ـ نستطيع أن نختم هذا المقال بإعطاء مضمون أكثر تماسكًا لفكرة «المشروع السيميوطيقي» أو «البراديغم السيميوطيقي». انطلاقًا من هذا الطرح الشامل، يمكن سيميوطيقا بيرس وسيميوطيقا دو سوسير/يامسليف أن تخضع للمقارنة. هذا «المشروع السيميوطيقي» أو السيميوطيقا ـ الكبيرة ـ

يتميز من «النزعة السيميوطيقية» من خلال أن الأبعاد الثلاثة (بُعد الموضوع والذات/المؤول، ونسق العبارة) ليس لها علاقة شبه تكتيكية وإنما لها **علاقة وظيفية**. الأبعاد الثلاثة غير متراكبة (وهو ما يصبح شبه تكتيكي) ولكنها تتغير **بشكل متبادل**. ولبلوغ التحديد الملائم للسيميوزيس ـ وفي الوقت نفسه للتصور الغني للسيميوطيقا ـ يمكن أن ننطلق من الخطاطة الأكثر صرامة: الموضوع ـ العلامة ـ الذات (عند بيرس: المؤول). يجب بعد ذلك إغناء محتوى عناصر الثالوث (أ)، وضع تخطيط للدوائر الممكنة بين عناصر الثالوث (ب) ، وفي النهاية صوغ خصوصية **نمط العلاقة** بين العناصر في الدوائر التي تم طرحها (ج).

عناصر الثالوث

يُعَدّ **البعد الموضوعي** للسيميوزيس، في الواقع ، مكوَّنًا بواسطة **العالم**: لا يوجد الموضوع إلا في أفق الموضوع ـ المشترك. ولا يكفي البتة إغناء الأنطولوجيا بتمييز الموضوعات ـ الأفراد فحسب، بل أيضًا بتمييز أنواع أخرى من الموضوعات، مثل حالات الأمر الواقع والأحداث، وحتى القيم، إلى حد ما. ويبقى دائمًا في فينومينولوجيا العالم مظهر غير قضوي، وخاصة المظهر ـ المشارك أو مظهر **الأفق** الذي لا ينضب معينه.

يُعَدّ التمييز: طبيعي ـ ثقافي، في تحديد البُعد الموضوعي للسيميوزيس، هامشيًا تقريبًا، بل تجريديًا واختزاليًا أيضًا. من الواضح أن الاتجاه الدلالي يُعتبر عاجزًا تجاه البُعد الموضوعي الذي يختزل بالنسبة إلى الاتجاه الدلالي إلى مجموعة (غير منظمة واعتباطية) من الموضوعات ـ الأفراد.

ويُعتبر **البُعد الذاتي** للسيميوزيس، في الواقع، مكوَّنًا بواسطة **مجموعة الإنتاج**: لا توجد الذات سوى في أفق الذوات ـ المشتركة، مفهوم قابل للتوسع إلى المجموعة برمّتها. وما تنتجه المجموعة ـ ما تنتجه الذات بشكل مشترك ـ يُعتبر دلالة في حالة تواصل (تتحدد مفاهيم الدلالة والتواصل في هذه اللحظة بشكل متبادل).

حين أقول إن الهرمنيطيقا ـ هرمنيطيقا غادامير (Gadamer) مثلًا ـ تُعَدّ اتجاهًا تداوليًا وليس سيميوطيقا، فإني أفكر أساسًا في مركزية **الذات المتَوحِّدة**، المجردة عن مجموعة الإنتاج، المحددة مثل أقنوم بواسطة الهرمنيطيقا (بل وحتى بواسطة فلسفة هايدغر).

لا تُعتبر الوظيفة العلامية نفسها علامة، بل تُعَدّ نسقًا **منفتحًا** للإنتاج: الدوائر كلها لا تجوب علامات منعزلة فحسب، بل أيضًا سلسلة العلامات ـ المشتركة: **جميع** العلامات هي علامات مشتركة.

الدوائر بين عناصر الثالوث

أعني بـ«الدائرة السيميوطيقية» هذه العلاقة أو هذه العلاقة الأخرى **الموجَّهة** بين عنصرين أو ثلاثة من عناصر الثالوث (الموضوع ـ العلامة ـ الذات ، في الحالة الأكثر فقرًا ، والعالم ـ الوظيفة العلامِية ـ مجموعة الإنتاج ـ في الحالات التي أُثريت). ونستطيع هكذا صوغ أربعة أنماط من الدوائر:

ـ الاتجاه **الدلالي المقيد** والاتجاه **التداولي المقيد** لهما، كمجال للتنقيب، علاقات فقيرة جدًا ومجردة، علاقة العلامة المنعزلة بالموضوع ـ الفرد، وعلاقة العلامة المنعزلة بالذات المتوحِّدة. بمعنى محدَّد، إنها دوائر ـ حدود، أو على الأصح أوهام نظرية أكثر منها إنجازات حقيقية. نفكر، من بين ما نفكر فيه، في الحلم الذري لراسل بلغة تكون كل علامة فيها موافقة لموضوع ـ فرد من دون تجانس أو ترادف؛ إنه حلم لم يمت مع ذلك: أفكر في نحو مونتاغيو (Montague) الذي ينظر إلى المقولات النحوية كما لو أنها في علاقة أحادية مع موضوعات «مؤشر عليها»، إذن مقولات تفريدية على وجه الإطلاق (بالمعنى المنطقي للفرد).

ـ يُعَدّ الاتجاهان **الدلالي والتداولي** موسعين كلما تعلق الأمر بالوظيفة العلامية، وليس بالعلامة منفردة، و بـ **العالم** بصفته أفقًا للذوات المشتركة من جهة، وبـ **مجموعة** الإنتاج بصفتها أفقًا للذوات المشتركة التي تربط بينها علائق من جهة أخرى.

ـ يستعيد **علم الدلالة والتداوليات** داخل نماذجهما العناصر الثلاثة (يوجد من بينها عنصر بصفته عنصرًا وسيطيًا)، غير أن العلاقة ذات ثلاثة عناصر تمتلك اتجاهية خاصة («نحوَ العالم» بالنسبة إلى علم الدلالة و«نحوَ الذات» بالنسبة إلى التداوليات). إنها تخصصات «جديرة بالاحترام» على الرغم من أنها مقطعية ومؤقتة. يمكن أن نعتبر في المنطق الغائي ـ الذي يُعَدّ هيغليًا كما كنت أقول في بداية هذا المقال ـ أن علم الدلالة والتداوليات «تربيا» في أحضان المقاربة الشمولية والمدمجة التي هي السيميوطيقا.

ـ **السيميوطيقا المدمجة** تهمُّ الثالوث الكامل، غير أن العلاقة بين العناصر (عالم ، وظيفة علامِية، مجموعة إنتاج) ليست باتجاهية البتة: ما دامت العناصر كلها تُعَدّ وسيطية من دون اتجاهية، فلم يعد هناك أساس في الخطاطة (لا يوجد عنصر له امتياز العنصر التأسيسي). إنها فعلًا هذه السيميوطيقا المدمجة ـ التي لا توجد سوى على شكل مشروع براديغمي ـ التي تتحقق جزئيًا داخل أنواع السيميوطيقا المتكوِّنة. إنها تظل **مثالًا** يتم التطلع إليه، فتستطيع تشكيل الفلسفة الأولى لعالمنا المعاصر.

أنواع العلاقات بين عناصر الثالوث

أدمج هنا، بمجرد إثارتهما، زوجين مفهوميين يهمان خصائص العلامة الداخلية للدوائر السيميوطيقية. هناك علاقة تمثيل حين لا يكون هناك سوى عنصرين (من دون وساطة للعنصر الثالث)، وهناك علاقة استمثال حينما تكون العلاقة **توسُطية** بواسطة العنصر الثالث: في هذه الحالة، فإن العنصر الثالث هو الذي يَسْتمثِل السيميوزيس. هناك علاقة **عبارة** إذا كان هناك تشاكل بين العنصر المُتَمَثّل أو العنصر المُسْتمْثَل والعنصر القائم بالتمثيل أو بالاستِمْثال، إذا لم يكن هناك تشاكل، ولكن هناك بنية علامِية مخالفة للعنصرين سأصطلح عليها بـ **التمفصُل**. إذا أخذنا، على سبيل المثال، حالة الاتجاه الدلالي، سنرى أن علاقة نسق العبارة بالعالم تُعَدّ علاقة تمثيل. أمّا السيميوطيقا المدمجة، فهي على العكس من ذلك، لا تهم سوى علاقات بين العالم والخطاب (نسق التعبير بامتياز) ومجموعة الإنتاج التي يمكن

أن ننعتها بعلاقة **الاستِمْثال** غير التعبيرية ولكن **التمفصُلِية**، وهذا ما يجعل من السيميوزيس دينامية لا محدودة وغير قابلة للنضوب.

لقد أردت أن أشير في هذا المقال الموغل في التجريد الفلسفي إلى حد كبير، إلى أن السيميوطيقا، بصفتها صورة للفكر والبناء التصوري، تتميز بخصوصية كبيرة. ولكن بصفتها السيميوطيقا ـ الكبيرة، تظل دائمًا ممكنة و«مثالية»: فهي لا تتحقق أبدًا بشكل كلي. يجب مع ذلك، وفي ضوء هذا الأفق المرتبط بالسيميوطيقا بصفتها مشروعًا براديغميًا، تقييم أنواع السيميوطيقا الموجودة فعليًا أو المتكوِّنة. صحيح أننا منذ النظرة الأولى متخوفون إلى حد ما من تشظي الحقل السيميوطيقي المعاصر، وخاصة من الانشقاق التراجيدي بين سيميوطيقا بيرس من جهة (والتابعين) والسيميوطيقا السوسيرية ـ اليامسليفية من جهة أخرى، فإني لا أقلل من أهمية التوترات الموجودة واللا ـ توافقات، ومع ذلك، فإن كل مجهود سيميوطيقي يتوجه براديغميًا ضدالأساطير نفسها، والأيديولوجيات نفسها والأبنية التصورية نفسها، وكلها تسبق، في تاريخ الفكر، مجيء السيميوطيقا المُدمَجة.